العلمية لها وحدها كل ما هو جوهرى فى العقل البشرى، وأن جميع الآراء أو النزعات التى بوساطتها تجلت الروح العلمية على مر العصور، لها فى مبادئ العلم تعبيرها الوحيد المحقق والمشروع، وعندئذ فكل ما هو خارج عن العلم، فهو من أجل ذلك خارج عن العقل، وحيث كان الدين بالضرورة شيئًا آخر خلاف العلم، فهو أوليا من بين مواد التجربة الخام التى من شأن العلم أن يحيلها إلى رموز موضوعية، قادرة أن تصاغ فى ثوب من الحقيقة).

والواقع أن هذا الرأى فى حاجة إلى نقاش، فالروح العلمية هناك تمتلك جوهر العقل بل تعتمد عليه بالدرجة الأولى، وهذا حق لكن الشطر الآخر من القضية، والذى يعنى أن كل ما هو خارج عن العلم فهو من أجل ذلك خارج عن العقل، هذا الشطر يبنى على أساس واه يجعله غير مقبول فى ميدان النقاش، فافتراض أن الروح الدينية لا تستند إلى العقل افتراض غير علمى وغير موضوعى، فالعقل البشرى فى مجال الاعتقاد أو فى الناحية الدينية يستند إلى تراث حضارى دينى يرجع إلى آلاف السنين من عمر البشرية، كانت البشرية فيه خلال هذا العمر الطويل تحاول - دائبة - التوصل إلى صيغة سديدة فى مجال الاعتقاد، وغنى عن البيان تتبع هذا التسلسل الطويل، والمحاولات المتعددة التى خاضتها البشرية فى هذا الصدد وبتأمل هذه المحاولات بما فيها من صواب وخطأ، وهدى وضلال، وصيحات أرضية ووحى سماوى - يمكن أن يصل الباحث إلى حقيقة مهمة، وهى أنه حين استخدم الإنسان عقله وعمل على ألا يقع فى تناقض وأن يضع الأمور فى نصابها، وأن يتغلب على هواه وعواطفه، وينتصر عليها، أى يحكم عقله، وصل إلى الحق، وحين ارتفع صوت الله - سبحانه وتعالى - على لسان رسله باليهودية والمسيحية والإسلام نطق الحق بإعمال العقل والتفكير، والنظر، فهذا تساؤل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

وهذا حض على إعمال العقل، وهذا تساؤل: أفلا يتدبرون؟ أفلا يعقلون؟ وغير ذلك مما يكثر حصره من آيات للقرآن الكريم التى تشيد بالعقل واللب والفكر والنظر، وتأمر بها، وتلوم من يبعد عن نطاقها.

وقد يحلو هنا الرجوع إلى كلام المؤلف ليبدو إيمانه بما نذهب إليه، أو بما هو